دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	ملامح من حضارة العرب في مجال العلوم الصحية
المصدر:	التعريب
الناشر:	المركز العربى للتعريب والترجمة والتأليف والنشر
المؤلف الرئيسي:	النبهان، يعرب
المجلد/العدد:	مج25, ع49
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	271 - 296
رقم MD:	761066
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الحضارة العربية ، الأطباء العرب ، العلوم الطبية ، المؤلفات
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/761066

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

ملامح من حضارة العرب في مجال العلوم الصحية

د. يعرب نبهان

باحث

إن المستوى المتقدم الذي بلغته حضارة العرب في العصور الوسطى، لم يأت من فراغ مطلق، ثم إنه لم يكن نتيجة الاعتماد على ما قدمته الحضارة اليونانية وغيرها من معطيات علمية رائدة، وهو أمر كاد أن يسود أو يتبلور كمفهوم ثابت غير قابل للنقاش. إن الذي حدث بالفعل على أرض الواقع، هو أن العرب في العصور القديمة استطاعوا أن يصنعوا مجدا حضاريا لائقا ومتقدما في مصر والشام والعراق والمغرب الكبير وجزيرة العرب، وكان هذا المجد في كل مجالات الحضارة والتقدم، وذلك نتيجة مثابرة علمية جادة، مكنت العرب من الوقوف على قدم المساواة مع تلك الحضارات المتقدمة في الصين والهند واليونان وغيرها، نتيجة ونوعية وكما وتأثيرا وديمومة.

وقد تأكدت هذه الحقيقة الساطعة في كتابات وأقوال مجموعة منصفة من المستشرقين والباحثين الغربيين، لكن مجموعة أخرى في المقابل رفضت الاعتراف بهذه الحقيقة رفضا قاطعا، ودللت على ذلك ومازالت تدلل على أن المسلمين من غير العرب، هم الذين صنعوا الحضارة التي نسبت للعرب تحت عنوان الحضارة العربية، وكان هؤلاء مجموعة من الفرس وأخرى من قوميات آسيوية مختلفة، وخاصة من المنطقة التي تعرف اليوم بآسيا الوسطى، ومجموعة ثالثة من المسيحيين العرب الذين لم يدخلوا في الدين الإسلامي، وكأن الانتماء العربي في نظر المشككين في حقيقة الحضارة العربية، كان في العصور القديمة والوسطى يقتصر على المسلمين دون غيرهم، مما يجعل آراء هذه المجموعة مجانبة لحقائق الواقع والتاريخ، وليست لها من هدف سوى تشويه دور العرب الحضاري في التاريخ الإنساني، وراحت تروج القول، بأن العرب لم يسهموا في صنع الحضارة التي يدعونها لأنفسهم، وإن الذي صنع هذه الحضارة هم الموالي من غير العرب، والمسيحيون الذين هم من أصول عربية أصلية، ولكنهم يريدون أن يخرجوهم من أصولهم العربية ظلما وبهتانا.

مهما يكن من أمر فإن هذه الأقوال المغرضة، لا تشكل أية أهمية أو قيمة على أرض الواقع، ذلك لأن التقدم الحضاري الرفيع، الذي شهدته المنطقة العربية في العصور القديمة، هو الذي شكل الأساس المتين للانطلاقة العربية المباركة في العصور الوسطى، هذا إضافة إلى مجموعة المعارف المتفوقة التي جاء بها الإسلام، وكذلك ما حصله العرب نتيجة حركة الترجمة من معطيات الحضارات العالمية القديمة، زد على ذلك الزخم القوي الذي تميز به النشاط العربي في هذا المجال الحيوي. وسنبحث في هذا الفصل أهم الإبداعات العربية، في مجال العلوم التجريبية بشيء من التفصيل غير الممل، حتى نقف على حقيقة ما توصلت إليه هذه الإبداعات من نتائج إيجابية في تاريخ المسيرة العلمية الإنسانية.

الطب والصيدلة

لا أحد يستطيع أن ينكر، أن العرب في العصور الوسطى، تمكنوا بجدارة واستحقاق من شغل المراتب الأولى في مسيرة الطب العالمية على صعيد التعلم والممارسة والتفوق. وقد بدأت معالم هذه المسيرة الحضارية منذ النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، واستمرت في تقدمها وريادتها ونتائجها الطبية الهامة حتى نهاية العصور الوسطى، ومازالت حتى يومنا هذا وستبقى في المستقبل، تستحوذ على عين الرضا والاحترام من كل المنصفين.

كان التقدم السريع لخطوات هذه المسيرة، هو الملمح الأبرز، ذلك لأن المشتغلين في مجال الطب، استطاعوا أن يقفزوا في عملهم خطوات سريعة جدا، ترافقت مع إنجازات بالغة الأهمية في تاريخ مسيرة الطب العالمية، فكانت كل طبقة من طبقات الأطباء العرب، تأبى أن تتوقف عند إنجازات الطبقة التي سبقتها، وكانت تعمل بغية أن يكون لها ما يميزها من إنجازات هامة.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الأطباء العرب، اعتمدوا على مصادر الطب اليوناني، لكن هذا الاعتماد لم يجعلهم يقفون عند معطيات المصادر اليونانية، بل تجاوزوا هذه المصادر خطوات

وقفزات هائلة، ظهرت من خلال مؤلفات وأعمال رائعة، تفوقت على الكتب اليونانية في عدد من المسائل الطبية، كما سيتوضح بقوة من التفاصيل القادمة.

وقد بدأ الاهتمام بعلوم الطب في المجتمع العربي منذ وقت مبكر، بدافع الحاجة للتداوي ومعالجة المرضى واستقصاء أسباب المرض ووضع استراتيجية للتخلص من الأمراض قدر المستطاع. هذه الحاجة شغلت المرتبة الأولى في قائمة الاهتمامات العربية في ميدان العلوم الطبية، فتقدمت بذلك على الهندسة والكيمياء رغم أهمية هذه العلوم في حياة الناس، ذلك لأن علم الطب شكل دعما بالغ الأهمية في حياة الإنسان بعامة، فهو الذي يساعد على رفاه الإنسان ورغده وراحته، وذلك بالقضاء على أسباب المرض وتخفيف آثاره السلبية قدر الإمكان[1]، وجاء هذا الاهتمام من الحكام ومن المشتغلين بالطب على حدٍ سواء.

فقد شجع الرسول الكريم صلوات الله عليه على ضرورة معالجة الأمراض بالتداوي بعد تشخيصها، ولا يجوز أن تترك الأمور تسير على أعنَّتها، كما كان عليه الأمر في بعض المجتمعات العربية قبل ظهور الإسلام، فقد كان يسيطر على هذه المجتمعات مفاهيم غير علمية، مثل المفهوم القائل بأن سبب أمراض الإنسان، هو أرواح شريرة لا يمكن التخلص منها إلا بمساعدة المعتنين بالكهانة والتنجيم[2].

وبذلك شكل تشجيع الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم قاعدة صلبة، اعتمد عليها علم الطب عند العرب اعتمادا كبيرا، حتى أصبحت المحرك الأساس لكل اهتمام أو نشاط في دائرة هذا العلم، الذي كان نقلة نوعية بالغة الأهمية في حياة الناس على طريق التخلص من المنغصات التي تسببها الأمراض، التي دعا الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم بوضوح إلى استئصال شأفتها، حينما

[1] نشأت حمارنة، تاريخ الطب، طبعة جامعة دمشق، 1979، ص 86-87.

[2] حكمت عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص 37.

أجاب على السؤال التالي، أفي الطب خير يا رسول الله؟ قال صلي الله عليه وسلم: "نعم أنزل الدواء من أنزل الداء"[1].

وكان من أهم القضايا التي حرص الرسول صلي الله عليه وسلم على أن تعتمد في المجتمع في المجال الصحي، قضية النظافة العامة، التي تشكل أحد أهم جوانب الوقاية من انتشار الأمراض، وقضية الاعتدال في الطعام والشراب، لأن في ذلك تجنبا للتخمة والمضاعفات والاختلاطات الغذائية، وقضية الحجر الصحي وخاصة في أوقات انتشار الجوائح الوبائية حتى لا تنتقل الأمراض إلى مناطق إضافية، وقد مثلت هذه القضية تطورا هاما في تاريخ الطب العربي والعالمي على حدٍ سواء، لأن مسألة انتشار الأمراض عن طريق العدوى، لم تكن معروفة على نطاق واسع مثل هذه اللفتة الكريمة من رسول الله صلي الله عليه وسلم، التي جسدها بقوله مخاطبا أبناء قومه وأتباعه عن الطاعون: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه". وقضية المعالجة النفسية، التي تمثل إشارة بالغة الأهمية في سياق تطور مسيرة الطب، لأن الأسباب النفسية كما أثبت العلم الحديث، تشغل دورا كبيرا في مسألة تفاقم المرض أو شفائه، فأكد الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ضرورة الابتعاد عن أسباب القلق والإحباط بزرع التفاؤل وتقوية المعنويات، وقضية الاعتماد على بعض الأغذية الهامة كالعسل[2].

من جهة أخرى أكد الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ضرورة الاعتماد على أهل الاختصاص من الأطباء، الذين يستطيعون دون غيرهم تطبيق علمهم على مسائل المداواة والمعالجة الطبية، فدعا صلي الله عليه وسلم إلى زيارة أهم طبيب في عصره هو الحارث بن كلدة الثقفي، الذي يعد أول طبيب عربي[3].

---

[1] –ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، طبعة أولى، القاهرة، 1980، ص 132.
– ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق شعيب أرناؤوط،1955 ص 87.

[2]ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ص 17 وما بعدها. نشأت حمارنة، مرجع سابق، ص 87.

[3]ابن جلجل، مصدر سابق، ص 54.

ولعل الحديث بشيء من التفصيل عن الطبيب العربي الحارث بن كلدة الثقفي يعطينا صورة واضحة عن المستوى، الذي كان عليه علم الطب في عصر الرسول صلي الله عليه وسلم وفي عصر الخلفاء الراشدين، من حيث المعارف الطبية التي كانت سائدة، ومن حيث المنجزات العلمية والموضوعات والأمراض، التي عولجت بوجهٍ خاص، فقد سافر الحارث بن كلدة الثقفي في طلب المعرفة، إلى بلاد فارس، التي اشتهرت فيها مدرسة جنديسابور وغيرها، التي درس فيها الطب وطرق معالجة المرض[1]. ومعظم المعارف التي حصلها الحارث بن كلدة في جنديسابور وغيرها، كان قد سمعها من رسول الله صلي الله عليه وسلم، فعلى سبيل المثال كان ينهى عن إدخال الطعام على الطعام تجنبا للتخمة والاضطرابات الهضمية، وكان ينصح بتناول الفواكه في أوقات نضجها، وعدم تناولها في غير مواسمها، وكان ينهى عن الزواج من المرأة المسنة، ويحرض على الزواج من الشابة، ودعا إلى ضرورة أن يكون هناك ثمة فرق في السن بين الرجل والمرأة، وكان ينهى عن التعرض لحرارة الشمس كثيرا، وهو ما أثبته العلم الحديث، لما تسببه من أضرار جسدية مختلفة، وكان ينهى عن تناول الدواء إلا في أوقات الحاجة الماسة، وذلك تجنبا للتأثيرات الجانبية التي تسببها معظم الأدوية ولاسيما المركبة منها، وأكد على ضرورة تناول الماء بالقدر الذي يسد حاجة الجسد[2].

تغيرت صورة الواقع الطبي العربي في العصر الأموي[3] فكثر الأطباء وتوسعت مداركهم ومعارفهم العلمية، ساعد على ذلك أرضية علمية متقدمة إلى حدٍ ما، توفرت بوجهٍ خاص بدمشق عاصمة الأمويين الجديدة، فقد توفر فيها عدد من الأطباء، ساهموا في نهضة الدولة الأموية في ميدان الطب قدر إمكاناتهم، وكانوا عونا لخلفاء هذه الدولة، الذين ركزوا في كل مدد حكمهم على الأخذ بأسباب العلم، وكان الطب أحد العلوم التي أصابها حظ وافر من الاهتمام، لما له من تأثير بالغ في الحياة العامة وتقدم المجتمع وازدهاره. فاشتهر الطبيب ابن أثال، والطبيب الحكم بن أبي الحكم

---

[1] ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، طبعة بيروت، مكتبة الحياة، ص 161.

[2] –ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص 162. ابن جلجل، مصدر سابق، ص 54.

– القفطي، تاريخ الحكماء، طبعة ليبزيغ، 1930، ص 161.

[3] بدأ هذا العصر في سنة 41 وانتهى في سنة 132هـ.

الدمشقي. وكان الطبيب السرياني ماسرجويه قد ترجم كتاب (أهرن القس) من السريانية إلى العربية، ولم ينتشر هذا الكتاب انتشارا فعليا بين الناس إلا في مدة خلافة عمر بن عبد العزيز، مع أن ترجمته كانت قد انتهت في خلافة مروان بن الحكم[1].

وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك في طليعة الخلفاء الأمويين، الذين تجلت في أعمالهم مظاهر الاهتمام بالموضوع الطبي، ولاسيما عمله الرائع الذي تجسد في إقامة بيمارستان بدمشق في سنة 88 هـ/706م، وعين له الأطباء المقيمين، وكان قد أمر أن يحجر المجذومين في هذا البيمارستان، وأن يصرف عليهم طوال مدة الحجر عليهم.

وهنا يجب أن نلفت الانتباه، أن بيمارستان دمشق لم يكن المنجز الوحيد في هذا الميدان، بل كانت هناك بيمارستانات أخرى، مثل بيمارستان الفسطاط بمصر، وبيمارستان جنديسابور الذي استمرت مهمته التعليمية والخدمية. وتشبه هذه المستشفيات من حيث مهماتها وأهدافها المستشفيات الحكومية في معظم دول العالم في عصرنا الحاضر[2].

وباعتبار أن العصر الأموي كان عصر تأسيس وانطلاقة المسيرة الطبية العربية، فإننا سنفصل إلى حدٍ ما في دراسة حياة الأطباء في هذا العصر، وكذلك في ثقافتهم وفي طبيعة أعمالهم الطبية في المشافي وفي غيرها.

وأشهر هؤلاء الأطباء:

ابن آثال، الذي عاصر الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وكان طبيبه الخاص، رافقه في حله وقيامه لشدة ثقته به، حتى إنه كان يبقيه معه في الليل كما قيل. ويمكن اعتباره صيدليا إلى جانب كونه طبيبا، وهو نموذج سيتكرر في هذا العصر، ذلك لأن علم الأدوية ارتبط ارتباطا وثيقا بعلم

[1] كانت خلافة عبد العزيز من سنة 99 حتى 101هـ، وكانت خلافة مروان بن الحكم بضعة شهور من سنة 65هـ. انظر ابن جلجل، مرجع سابق، ص 61. الفهرست لابن النديم، ص 413. حكمت عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 41.

[2] أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الدولة الإسلامية، مخطوط الظاهرية بدمشق رقم 73/7، ص 34. وانظر: تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 290. وابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص 171.

الطب، وهذا ما شجع معاوية بن أبي سفيان على تكليفه بتحضير السموم، التي كانت تستعمل للتخلص من المعارضين، وهي طريقة غريبة على أخلاقنا وأعرافنا وتقاليدنا العربية، ولا يمكن أن نبررها مهما كانت الأسباب موجبة وملحة، ذلك لأن ما قتل بفعلها في عصر معاوية من أكابر الناس، كان عددا غير قليل كما ذكر ابن أبي أصيبعة[1] أبو الحكم الدمشقي الذي عاصر الخليفة عبد الملك بن مروان، وأشرف على علاجه في مرض موته، وكان قبله طبيبا لمعاوية بن أبي سفيان، وهو أن ابن أثال السالف الذكر، كان طبيبا وصيدلانيا في الوقت ذاته، وذكر عنه أنه كان واسع المعرفة في طريقة تحضير السموم[2]. وقد خَّلف ولدا اشتغل في صنعة الطب، وهو الحكم الدمشقي، الذي لم ينل من الشهرة ما ناله والده، مع أنه امتاز عنه بمعرفة بعض الطرق الجراحية[3].

وفي العراق اشتهر أمر الطبيب تياذوق، الذي اختص بمداواة الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، فقد كان كما قيل عنه طبيبا ماهرا في علوم الصحة العامة، مع أنه لم يسافر خارج المنطقة العربية في طلب العلم، ويبدو أنه اعتمد كثيرا على الطب النبوي، فأكد حقائق سابقة كان الحارث بن كلدة[4] قد قال فيها، وزاد عليها بعض الحقائق الجديدة الهامة، مثل إلحاحه على ضرورة عدم حصر البول في المثانة، وضرورة الاستحمام كل يومين على أقل تقدير، وضرورة المشي بعد تناول العشاء وغيرها، لكن أهم إشارة جديدة صدرت عنه في مجال الطب، هي أن قشر الفستق يصلح لإيقاف الإسهال، إذا مضغه المريض جيدا، كما أنه أنجز كتابا هاما في الأدوية سماه (إبدال الأدوية) ويتضمن هذا الكتاب طرق تحضير الأدوية، والأمراض التي يمكن معالجتها بواسطة هذه الأدوية، وربما هو أول كتاب من نوعه في هذا العصر[5].

---

[1] لوسيان لوكليرك، تاريخ الطب العربي، ص 76. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص 172.

[2] ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص 175 وما بعدها.

[3] لوسيان لوكليرك، مرجع سابق، ص 83 – 84.

[4] معظم المعارف الطبية التي حازها الحارث بن كلدة كان مصدرها الطب النبوي.

[5] ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص 179. القفطي، مصدر سابق، ص 105.

ومن الأطباء الأمويين، كان ماسرجويه الذي اهتم بشؤون الترجمة إلى جانب عمله الطبي، وكان أهم عمل قام به في مجال الترجمة، ترجمته لكتاب أهرن ابن أعين القس في الطب، وهو أهم كتاب في الطب في العصور القديمة، ودليل ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز، هو الذي أمر بطرحه ليكون في متناول الجميع للاطلاع على مضمونه[1].

من خلال ما تقدم عن سير الأطباء الأمويين، يمكن أن نستنتج أن المعلومات الطبية، التي حازها الأطباء كانت محدودة، نقلوها عن الذين سبقوهم بطريقة الحفظ، وقليلا ما استطاعوا أن يخرجوا عنها أو يحسنوها عن طريق ابتكار أفكار جديدة، ومع ذلك فقد مهدوا الطريق للأطباء، الذين جاؤوا بعدهم في العصور التالية.

ترافق وجود الأطباء في العصر الأموي باستحداث عدد من المستشفيات، استطاعت إلى حد بعيد أن تفي بحاجة المدن التي أنشئت فيها، فكانت تستقبل المرضى للعلاج المؤقت والدائم، وبصورة مستمرة ومجانية مما يشبه المستشفيات الحكومية. وكان من أهم هذه المستشفيات، مستشفى دمشق الذي أنشئ تحت المئذنة الغربية من المسجد الأموي، ويقال إنه بني في عصر معاوية بن أبي سفيان أو في عصر ابنه يزيد[2]، وفي دمشق أيضا أنشئ مشفى آخر في عصر الوليد بن عبد الملك، الذي خصصه لأصحاب العاهات من المجذومين والعميان، وللفقراء والمساكين وأصحاب الأحوال الاقتصادية المتعثرة، وكان المرضى في هذا المستشفى يتلقون العلاج والدواء والطعام إضافة إلى النوم وأعمال الخدمة من كافة جوانبها، كما أنشئ مشفى ثالث بالفسطاط بمصر في حي القناديل[3] هذا إضافة إلى مستشفى جنديسابور، الذي بقي مؤسسة تعليمية هامة لعلوم الطب في العصر الأموي، وكان أن تخرج منه جميع أطباء الحقبة الأموية[4]. وقد يدل وجود مثل هذه المستشفيات في العصر

[1] ابن جلجل، مصدر سابق، ص 61. القفطي، مصدر سابق، ص 334.
[2] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 3، ص 4.
[3] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 3، ص 4.
[4] أحمد عيسى بك، مرجع سابق، ص 34 وما بعدها.

الأموي، على أن الأطباء الذين أتينا على ذكرهم، لم يكونوا وحدهم الذين مثلوا الإطار الطبي الكامل في هذا العصر، لأن المصادر المعنية لا تذكر أن أحدا منهم في هذه المستشفيات، مما يساعد على القول، إن مجموعة كبيرة من الأطباء، هي التي قامت بمهمة الطبابة في هذه المستشفيات.

أما في العصر العباسي فقد عمت مظاهر الرفاه والترف، فتنوعت المآكل والمشارب، فتعرض الناس لأمراض مختلفة لم تكن معروفة في الأزمان السابقة، مما جعل أمر وجود الأطباء حاجة ضرورية ملحة، وهذا ما حدا الخلفاء العباسيين الأوائل، على أن يعطوا مسألة الطبابة عناية فائقة، فأمروا باستقدام الخبراء من خارج المنطقة العربية، وأرسلوا مجموعة من الدارسين إلى البلاد التي امتازت بمعارفها الطبية المتقدمة.

كان في طليعة الخبراء الذين جاؤوا إلى عاصمة العباسيين، آل بختيشوع الذين حازوا شهرة عريضة في العصر العباسي الأول. وكان في طليعة المبتعثين حنا بن ماسويه، الذي ذهب إلى جنديسابور فدرس الطب فيها، ولم يفلح بعلم الطب كما أفلح في الترجمة عن اليونانية، وفي عصر الرشيد والمأمون أصبح في بغداد ثلاث مجموعات للترجمة والطبابة هي على التوالي: مجموعة أهل جنديسابور وفي طليعتهم جبرائيل بن بختيشوع، وهي مجموعة عملت بوجهٍ خاص في مداواة رجال الدولة من خلفاء وأمراء ووزراء، وخاصة جبرائيل المذكور، الذي أصبح رمزا وقدوة لكل مهتم بعلم الطب. ومجموعة أهل الحيرة، التي كان في طليعتها حنين بن إسحق، الذي كان من نوابغ عصره، تلاه في الخبرة ابنه إسحق وابن أخته حبيش، ويتميز حنين بن اسحق بمعرفة اليونانية معرفة دقيقة، مما ساعده على ترجمة عدد من الكتب الطبية اليونانية، وهذا الأمر زاد من شهرته حتى اعتمده الخليفة المأمون رئيسا لأهم أكاديمية علمية في العصر العباسي، هي بيت الحكمة.

ومجموعة أهل حران وكان في طليعتهم ثابت بن قرة وابنه سنان، وكلاهما كان طبيبا مختصا، وكان ثابت بن قرة إضافة لذلك واسع المعرفة والاطلاع في الهندسة والفلك، أما ابنه سنان فكان

أعرف منه في الطب، مما حدا الخليفة المقتدر، على أن يكلفه بامتحان الراغبين في تعاطي صناعة الطب قبل أن يسمح لهم بعلاج المرضى، وهو أمر لا يعهد به إلا لكبار الأطباء المتمكنين في العلم[1].

في العصر العباسي بدأ الأطباء بداية طيبة، حينما بدؤوا يؤلفون كتبا في الطب على شاكلة ما كان عند الأطباء اليونان، وكانت معظم هذه الكتب في البداية في مجال طب العين، وهي التي ألفها حنا بن ماسويه، وحنين بن إسحق، وثابت بن قرة وغيرهم، وربما يعود إلى انتشار أمراض العين في تلك الحقبة.

من أوائل الأطباء الذين ساروا على هذا المنهج خارج اختصاص العين، الطبيب علي بن زين، الذي ألف كتابا سماه (فردوس الحكمة)، لم يأت فيه بشيء جديد، لكنه كان بادرة طيبة لثقة العلماء العرب بأنفسهم على طريق التقدم[2]. وبالفعل فإنه منذ النصف الأخير من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أخذ الجانب العلمي يسير سيرا حثيثا باتجاه النضوج والابتكار، وقد ظهر ذلك عند الطبيب الرازي المتوفى سنة 313هـ/926م، حينما بدأ الاهتمام بالملاحظات السريرية أي دراسة المرض في أسبابه وتطوره، وكذلك ببدء المعالجة المبنية على التجربة بالأدوية المركبة وغير المركبة. وظهرت إضافة لذلك مدارس لتدريس الطب على المستويين النظري والعملي، بمعنى أن الطلاب كانوا يحضرون مع أساتذتهم طرق فحص المرضى ومعالجتهم، وكانت الدراسة تستغرق عدة سنوات، يخضع الطلاب في نهايتها لامتحانٍ معين ثم ينالون شهادات خاصة تسمح لهم بممارسة صنعة الطب. وقد بدأ الاهتمام بفحص طلبة الطب منذ سنة 319هـ/921م في خلافة المقتدر، الذي أصدر أمرا منع فيه الأطباء من معالجة الناس، إلا بعد النجاح في الامتحان الخاص للأطباء.

كل هذه الأمور أدت بسرعة لافتة إلى تقدم الطب في العصر العباسي، وهذا يظهر أمامنا بوضوح من خلال دراسة مجموعة من الأطباء، الذين اشتهروا في هذا العصر، ومنهم أبو بكر الرازي

[1] محمد كامل حسين، مقالة في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، طبعة مصر، 1987، ص 250 وما بعدها.
[2] محمد كامل حسين، المرجع السابق، ص 252 وما بعدها.

الذي درس الطب بعد أن بلغ سن الثلاثين، ومع ذلك تفوق في صنعته، واختير لرئاسة المستشفى العضدي ببغداد، ويعد الرازي من الأطباء العرب، الذين بدؤوا في انتهاج طريقة التجريب في معالجة المرضى، فكان يكتب ملاحظاته الخاصة عن مرضاه من خلال مراقبةٍ لصيقةٍ لتطور حالة المريض، وهو أول الأطباء الذين وصفوا مرض الجدري والحصبة في كتاب صغير، يعد من أعظم المنجزات العلمية في التراث الطبي العربي في العصور الوسطى، وهو أول من نبه على العامل الوراثي في حدوث الأمراض، وهو ما يؤكده الطب الحديث في معظم الأمراض، وهو أول من دّلّ على استعمال الماء البارد في معالجة الحميات وارتفاع الحرارة، وهو أول من استعمل الزئبق، مما يدل على معرفة عميقة في مجال الكيمياء. وله مؤلفات عديدة في موضوعات طبية مختلفة، اعتمد في تأليفها على مصادر أجنبية متعددة، كانت يونانية وفارسية وهندية[1].

من هذه الكتب الهامة كتاب الحاوي، الذي جاء ضخما وكبيرا لكثرة الموضوعات التي عالجها، مثل أمراض الرأس كالسكتة والفالج وآلام الأعصاب واسترخائها، ثم الكابوس والصرع والتشنج والكزاز، ثم أمراض العين والأنف والأذن والأسنان، وفي كل هذه الأمراض يقوم بذكر أعراضها وأسبابها وطرق معالجتها[2] وكتاب الحاوي هذا في قسمين، خصص الأول لمسألة الأقرباذين (الأدوية)، أما الثاني فقد خصصه كما ذكرنا لتوصيف حالة المرض وتطوره وطرقة علاجه، وقد ترجم هذا الكتاب لأهميته البالغة إلى اللاتينية[3].

أما الكتاب الثاني من حيث الأهمية، فهو كتاب المنصوري[4] الذي يعد اختصارا لكتاب الحاوي السالف الذكر، تميز بترتيبه ووضوحه وسهولة فهمه، مما ساعد على ترجمته إلى اللغة اللاتينية وتدريسه في الجامعات الغربية حتى القرن السابع عشر الميلادي، وله كما ذكرنا رسالة صغيرة في

---

[1] –أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، طبعة دار الفكر، 1973، ص 598.

–عبد العزيز بن عبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، ص 89.

[2]عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، طبعة بيروت، دار العلم للملايين، 1984، ص 276 وما بعدها.

[3]أنور الرفاعي، مرجع سابق، ص 599.

[4]نسبة إلى الأمير منصور حاكم خراسان الذي ألف الكتاب لأجل هذا.

الجدري والحصبة، تضمنت أول وصف سريري لهذين المرضين في تاريخ الطب العالمي، والرازي هو أول من فرق بينهما وأشار إلى انتقالهما بالعدوى، وهو الذي وصف الطفح الذي يرافقهما وصلته بارتفاع درجة الحرارة، وقد أشار إلى أهمية فحص النبض والتنفس والبراز عند المريض بهما، كما أشار إلى الطرق التي تحول وتمنع من حدوث التشوهات من جرائهما، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى اللاتينية ثم إلى الإنكليزية فيما بعد.

ومن كتبه الهامة أيضا، كان كتاب (الأسرار)، وهو كتاب في الأدوية يتحدث فيه عن كيفية وطرق تحضير الأدوية، ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي. وله الكتاب الجامع، وكتاب طب الفقراء، الذي يبحث في مجموعات الإسعافات الأولية في حالة عدم وجود طبيب، وكذلك في الأدوية الموجودة في كل مكان، ثم يتحدث عن فائدة الماء البارد، وعن مداواة الزكام، وعن منافع الحمام ومضاره وغير ذلك من موضوعات[1].

ومنهم الطبيب علي بن العباس المجوسي المتوفى سنة 383هـ/944م، وهو أحد تلامذة الرازي المتفوقين، الذي اشتهر عنه تأليفه لكتاب في الطب سماه (الملكي) أو (كامل الصناعة الطبية)، حاول فيه الابتعاد عن الاختصار المخل وعن التطويل الممل، فنجح في ذلك حتى قيل عنه، إنه أحسن اختصارا وترتيبا من كتاب الحاوي لأستاذه الرازي. وقد تحدث في هذا الكتاب عن الشرايين الدقيقة، وكذلك عن بعض النتائج التي توصل إليها من خلال تجاربه السريرية، مثل الحديث عن حركة الرحم بقوله: أن الجنين لا يخرج من تلقاء نفسه، ولكن الرحم هي التي تدفعه، ورغم أهمية هذا الكتاب، فإنه لم يلق حظا من اهتمام المعنيين، لأن كتاب القانون لابن سينا غطى عليه[2].

لكن الشهرة الأوسع كانت في هذا العصر من نصيب الطبيب العربي، ابن سينا المتوفى سنة 428هـ/1037م، الذي حاز معارف جمة في الطب والفلسفة والرياضيات والموسيقى والفلك واللغة

[1] عمر فروخ، مرجع سابق، ص 277 وما بعدها.

[2] محمد كامل حسين، مرجع سابق، ص 257.

العربية، وسطع نجمه في كل هذه العلوم فلقب بالشيخ الرئيس، واسمه أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، ولد بجمهورية أوزبكستان ببلدة قرب مدينة بخاري، وقد بدت عليه مظاهر التفوق منذ طفولته الأولى، وأقبل على دراسة العلوم بتشجيع من والده، ثم انتقل إلى بخاري فدرس فيها الطب والفلسفة، وأصبح طبيبا ممارسا في السادسة عشرة، وساعده الحظ في علاج الأمير نوح بن منصور الساماني من مرض كان قد ألم به، فسمح له الأمير بارتياد مكتبته، وكانت حافلة بكل أنواع الكتب، وخاصة كتب الطب والفلسفة، التي ركز على دراستها بشغف كبير، وتفوق في مجال الطب حتى أصبح من نجومه اللامعين، ومع ذلك فقد كان يميل إلى الفلسفة التي تفوق فيها أيضا.

من أهم القضايا الطبية التي درسها ابن سينا، النبض الذي ربطه بالأحوال المختلفة للإنسان في حياته، وركز بوجهٍ خاص على العامل النفسي في اضطرابه، وتعرض للسكتة الدماغية، وأشار إلى إمكان معالجة احتقان الدماغ بالتبريد، ثم توسع في دراسة الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية ووضع لها المعالجات الناجعة. وابن سينا هو أول من وصف التهاب السحايا وصفا صحيحا، ووصف أسباب اليرقان وصفا كافيا، وفرق بين شلل الوجه الناتج عن سبب داخلي أو عن سبب خارجي، كما شرح الفرق بين داء الجنب وبين التهاب الحجاب الحاجز، وأشار إلى أسباب العدوى بالسل وفي الأمراض التناسلية، وأسباب الميول الشاذة في الإنسان.

كما درس ابن سينا الجهاز الهضمي دراسة تفصيلية، وأشار إلى أسباب الحصاة في الكلية وفي المثانة، وأجاد في دراسة واقع العقم، وأشار إلى أسباب بعض الأورام الخبيثة، كما لو كان موجودا في العصر الحديث، ونصح بضرورة المداخلة الجراحية المبكرة، قبل أن يستفحل المرض وينتشر[1].

من أهم كتبه في الطب كتاب (القانون)، الذي حاز صفة العالمية، فقد شبه من حيث أهمية انتشاره وتداوله، بهندسة إقليدس، وفلسفة أرسطو، وكتاب سيبويه في النحو، وهو أفضل منجز في الطب العربي، وهو يبحث في العديد من الموضوعات، مثل حفظ الصحة والوقاية من المرض،

[1] عمر فروخ – مرجع سابق، ص 248 وما بعدها.

وتشريح جسم الإنسان، والأدوية المفردة، والحميات والقروح والجراحة وأمراض الجلد والسموم والكسور، وبالجملة فهو كتاب شامل، وهذا ما جعل الأوروبيين يترجمونه إلى اللاتينية[1].

ومنهم الطبيب ابن النفيس الدمشقي المتوفى بمصر سنة 686هـ/1288م تلقى علومه الطبية بدمشق والقاهرة، وبالقاهرة وصل إلى رئاسة المستشفى الناصري، ويعد ابن النفيس من الأطباء الباحثين، الذين أنجزوا اكتشافات هامة في المجال الطبي، وخاصة في مجال التشريح، الذي لم يكن قد نال اهتمام الأطباء العرب قبل ابن النفيس، الذي كان رائدا في هذا الميدان، ذلك لأن عمله الذي تسبب في اكتشاف الدورة الدموية الصغرى[2]، فكان هذا من أحسن وأكبر ما أنجزه العرب في علم التشريح ووظائف الأعضاء، حتى إنه كان كذلك على الصعيد العالمي.

وله من المؤلفات كتاب (الموجز في الطب) وهو مختصر كتاب القانون لابن سينا، وكتاب (شرح القانون) الذي ركز فيه بقدر كبير على تشريح القلب واتصال الشرايين به[3].

أما في الجناح الغربي من ديار العرب، الذي كان يتمثل بالأندلس والمغرب في العصور الوسطى، فقد مضى على وجود العرب في هذه المنطقة أكثر من مئة وخمسين عاما، لم يكن علم الطب فيها متقدما، بل كانوا يعتمدون على كتاب (هروشيوش) الذي ترجم من اللاتينية إلى العربية، وعلى كتاب (الحشائش) لديسقوريدس الذي ترجمه ابن جلجل إلى العربية، وبعد هذه الحقبة بدأت كتب المشرق في الطب، تصل تباعا إلى الأندلس، وكان في مقدمتها كتاب (الأدوار والألوف) لأبي معشر البلخي المتوفى سنة 272هـ/866م الذي اعتمد عليه ابن جلجل مصدرا من مصادره الهامة في كتابه (طبقات الأطباء والحكماء)، فذكر أنه لم يكن بالأندلس حتى مدة حكم الأمير الأموي

[1] محمد كامل حسين، مرجع سابق، ص 258.

[2] تعني حركة الدم بين القلب والرئتين.

[3] عمر فروخ، مرجع سابق، ص 291. محمد كامل حسين، مرجع سابق، ص 267.

عبد الرحمن بن الحكم، الذي حكم من 207 إلى 238هـ إلا أطباء نصارى، يعتمدون في عملهم على كتاب مترجم يقال له (الأبريسم) ومعناه الجامع أو المجموع[1].

وبعد هذه المدة بقليل، أصبح لإفريقية (تونس الحالية) شهرتها الطبية إلى حدٍ ما، وقد جاءت الشهرة بسبب إرسال العباسيين لأحد الأطباء المرموقين من بغداد إلى القيروان، وهو الطبيب إسحق بن عمران، الذي حمل لواء نهضة طبية مرموقة في ميدان التدريس والمعالجة والمداواة، كانت سببا في تقدم الطب بالأندلس لأن الأندلس[2] في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، رغم وجود بعض الأطباء فيها، فإنهم لم يهتموا في مسائل البحث العلمي، وظلوا يعتمدون في مجال المداواة على كتاب الحشائش لديسقوريدس، الذي كان قد ترجم إلى العربية، وستبقى هذه الحالة قائمة حتى عصر الخليفة الناصر لدين الله[3]، فبدأت الصورة في تغير لافت، ساعد على ذلك دخول خبرات طبية متقدمة من المشرق العربي إلى الأندلس كما يقول ابن جلجل: "ثم ظهرت دولة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد فتتابعت الخبرات في أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم، ونهضت الهمم وظهر الناس مما كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين"[4]. وستصبح العاصمة قرطبة في عصر الناصر وعصر ابنه الحكم المستنصر، من أهم عواصم العالم في العصور الوسطى، على الصعيد العلمي والحضاري، ومن ذلك الطب الذي تقدم بوتيرة قياسية، فظهرت مؤلفات طبية هامة، مثل كتاب (الأبريسم) الذي ألفه الطبيب يحي بن إسحق، وكتاب (تفسير أسماء الأدوية المفردة) الذي ألفه الطبيب ابن جلجل، وهو تفسير لمضمون كتاب الحشائش لديسقوريدس[5] وكتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) ألفه الطبيب الزهراوي، وهو موسوعة طبية شاملة جاءت في

---

[1] ابن جلجل، المصدر السابق، ص 92.

[2] ابن جلجل، المصدر السابق، ص 84 – 85.

[3] حكم الأندلس، بصفة أمير وخليفة من سنة 300 إلى سنة 350هـ.

[4] ابن جلجل، المصدر السابق، ص 97 – 98.

[5] –ابن الآبار، الحلة السيراء، ج 1، تحقيق حسين مؤنس، طبعة أولى، القاهرة 1963، ص 300-301.

–ابن جلجل، مصدر سابق، ص 101.

ثلاثين جزءا وأهم ما في هذه الموسوعة الجزء الذي يتحدث عن كيفية تحضير الأدوية المفردة، والجزء الذي يتحدث فيه عن الجراحة، الذي يعد أول مؤلف في مجال الجراحة، وهو الذي جعل الجراحة علما مستقلا يعتمد على علم التشريح في المقام الأول، ولأهمية هذا الكتاب ترجمه جيرارد الكريموني إلى اللاتينية، وكثر الإقبال على دراسته في العصور الوسطى[1].

وفي العصور التالية شهد علم الطب تطورا هاما بالأندلس والمغرب، وخاصة في عصر المرابطين والموحدين، وقد وصل هذا التطور الذروة في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وغدا هذا العلم مهتما بمعظم الاختصاصات والتفرعات الطبية والصيدلانية، وكان كثير من مشاهير أطباء هذه الحقبة، يجمعون بين دراسة ومعرفة الفلسفة والطب، كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز، وابن باجة الذي ألف كتاب (التجارب) بالاشتراك مع سفيان الأندلسي، وهو مكمل لكتاب ابن وافد الطليطلي في الأدوية المفردة، وأبي الوليد بن رشد الذي ألف كتاب (الكليات) الذي يبحث فيه مسائل التشريح ووظائف الأعضاء، وكذلك الأمراض بأنواعها وأهم أعراضها، والأدوية والأغذية وطرق الحفاظ على الصحة العامة.

لكن ريادة علم الطب في هذه الحقبة انحصرت بعائلة بني زهر، وهذه العائلة أنجبت عددا من الأطباء المتفوقين، كان أقدرهم جميعا أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر المتوفى بمراكش سنة 557هـ/1162م، لكنه دفن بمقبرة العائلة بإشبيلية بالأندلس، كان جراحا متمكنا في المقام الأول، وهو الذي أشار إلى ضرورة فصل الطب عن الصيدلة، بمعنى أن لا يكون الطبيب صانعا للأدوية وطبيبا في آن واحد، ورغم تمكنه من علم الجراحة كما ذكرنا، فإنه بقي يمارس الطب الباطني، لأنه كان يؤمن أيضا بفصل الجراحة عن الطب الباطني، فكان سباقا في هذا الأمر، الذي أقره الطب

[1] آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة، 1955، ص 465 وما بعدها.

الحديث. ومن أهم ما ألف في الطب كتاب (الاقتصاد) الذي قيل فيه إنه من أفضل ما ألفه العرب في مجال الطب السريري، فهو يذكر فيه نتائج الملاحظة السريرية[1].

أما في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الرابع والخامس عشر الميلاديين، فقد انعدمت كل قواعد وأسس النهضة الطبية، وظهر مكانها ميلٌ جارف للاعتماد على الشعوذة والخرافة، وسبب ذلك في المقام الأول، هو تمزق وحدة المغرب الكبير إلى ثلاث دول هزيلة في كل الميادين، وهي الدولة الحفصية بتونس، والدولة المرينية بالمغرب الأقصى، ودولة بني عبد الواد أو دولة الزيانيين بالمغرب الأوسط، ثم ضياع الأندلس باستثناء الزاوية الجنوبية الشرقية، التي تمثلت بغرناطة وما حولها.

ولم تقتصر شهرة الأندلسيين والمغاربة على بلادهم، بل عمت معظم أقطار المشرق العربي، وخاصة في بلاد الشام ومصر والعراق، فقد بدؤوا يظهرون في هذه البلاد كأطباء مرموقين منذ بداية القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وقد أدوا مهمات جليلة طول حياتهم العملية بفضل المراكز، التي شغلوها بجدارة ونجاح وإخلاص، رؤساء لمراكز طبية، وأطباء في الجيش ومرافقين للحكام، ومدرسين في أمهات المدارس الطبية المتخصصة، ومن أمثلة هؤلاء الأطباء أبو الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلي، الذي أصبح طبيب المستشفى المتنقل، الذي كان يحمل مع المعسكر السلطاني ببغداد، وابنه محمد بن عبد الله الباهلي أفضل الدولة المعروف بأبي المجد، الذي عين مديرا عاما للبيمارستان النوري بدمشق، وعمر بن علي البذوخ الذي اشتهر بالصيدلة وتحضير الأدوية إلى جانب عمله الرئيس كطبيب، وعبد المنعم الجلياني الذي كان من أهم أطباء صلاح الدين الأيوبي المقربين، وإبراهيم المغربي وابنه جمال الدين المغربي، الذي توصل إلى رئاسة أطباء القاهرة إضافة إلى عمله طبيبا خاصا للسلطان الناصر محمد ابن قلاوون في القرن الثامن الهجري[2].

---

[1] آنخل جنثالث بالنثيا، مرجع سابق، ص 446 وما بعدها.

[2] انظر كتابنا، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، طبعة دمشق، دار طلاس، 1989، ص 133 وما بعدها.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام، أن مسألة التخصص في ناحية معينة في جسم الإنسان، بدأت تظهر في هذه الحقبة فاختص بعض الأطباء بالجراحة وبعضهم بالأسنان وبعضهم الآخر بطب العيون.

ففي طب العيون الذي كان يعرف بالكحالة، يمكن أن نضرب عليه مثلا الكحال عيسى بن علي من تلامذة حنين بن إسحق، الذي اشتهر بمؤلفه (تذكرة الكحالين) والطبيب علي بن عيسى صاحب كتاب (في علاج العين) وعمر الموصلي صاحب كتاب (علاج العيون) الذي تضمن تشريحا مفصلا للعين وأمراضها، وابن عزوز المراكشي مؤلف كتاب (أمراض العيون) وغيرهم.

وفي طب الأسنان اختص كثيرون في هذا المجال، ومنهم الطبيب أحمد الحنفي الحصوني، وقد استعملوا آلات وتقانات في معالجة الأسنان، كانت متقدمة في ذلك العصر، مثل آلات لقلع الأضراس وتنظيفها وتشبيكها بخيوط من الفضة والذهب.

من جهة أخرى ظهر الجراحون العرب على نطاق مقبول، وكان الجراح (الجرائحي) يدرس علم التشريح بدقة ليتعرف مواضع الأعضاء لئلا يؤدي العمل الجراحي إلى إلحاق الأذية بالشرايين والأعصاب والأوتار[1].

ترافقت هذه النهضة العلمية الطبية بإقامة المستشفيات، فكان منها ما هو عام يشمل كل الاختصاصات الطبية، ومنها ما كانت تختص في معالجة مرض العين وهي قليلة. من هذه المستشفيات نذكر المستشفيات العسكرية التي عدت بوجهٍ خاص للقوات المسلحة، وكانت مستشفيات منقولة، وتحمل على الجمال والبغال، ومع ذلك فكانت الممرضات ينتقلن مع هذه المستشفيات، ومن أهم هذه المستشفيات مستشفى السلطان محمود السلجوقي، الذي كان يحمل على أربعين جملا[2] وربما كان هذا المستشفى قدوة للحكام في الحقب اللاحقة، حيث سادت عادة

[1] أنور الرفاعي، مرجع سابق، ص 605 وما بعدها.

[2] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 123. القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 264.

اصطحاب الأطباء والممرضين والأدوية مع الجيوش. نضرب على ذلك مثلا صلاح الدين الأيوبي، الذي كان مصحوبا بالعديد من الأطباء والممرضين، وكذلك السلطان المملوكي الظاهر برقوق المتوفى سنة 801هـ/1398م، الذي كان يستصحب معه مستشفى محمولا من الأطباء والممرضين والأدوية.

وفي العصر العباسي ظهر نوع من المستشفيات على نطاق ضيق في السجون، وكذلك في القرى، وكان هذا النوع متنقلا يتحرك من قرية إلى أخرى، وخاصة في أثناء حدوث الأوبئة والجوائح والطواعين.

مهما يكن من أمر فقد انتشرت المستشفيات في أشكالها كافة انتشارا لافتا منذ العصر العباسي الأول والثاني، في خلافة هارون الرشيد، والمقتدر، ومعز الدولة بن بويه، وأحمد بن طولون، وكافور الأخشيدي، وبنى الفاطميون مشفى القشاشين بالقرب من الجامع الأزهر بالقاهرة، كما بنى الأيوبيون المشفى الناصري بالقاهرة أيضا، وفي العصر المملوكي بنى السلطان قلاوون المنصور المستشفى المنصوري، وكان من أهم مستشفيات القاهرة[1].

هذا ويمكن أن نختم الحديث عن الطب العربي في العصور الوسطى بالقول إنه علم تميز بسمات علمية بارزة جعلته من العلوم المتقدمة، وانتقلت به من المحلية الضيقة إلى العالمية الواسعة الانتشار. من هذه السمات أن الطب العربي، كان وقائيا هدفه حفظ الصحة العامة بواسطة إجراءات ناجعة قبل وقوع المرض، ذلك لأن الوقاية كانت في نظر الأطباء العرب أهم من المعالجة أو على الأقل توازيها، وهو واقع يؤكده كل المعنيين بالصحة العامة للبشرية، بفضل إجراءات معينة، كالعناية بسلوك طريقة غذائية متوازنة، والعناية باستعمال اللقاحات والأمصال الواقية، والعناية بتطهير البيئة من كافة الملوثات، التي تضر بالصحة العامة. ولعل من أهم الإجراءات الوقائية الواضحة، التي أكدها الأطباء العرب في العصور الوسطى، ضرورة اعتماد تغذية متوازنة، فألفوا عددا من الكتب في هذا المجال كان منها، كتاب (منافع الأغذية ومضارها) للرازي، وكتاب (الكامل في

[1] عمر فروخ، مرجع سابق، ص 294.

الصناعة الطبية) لعلي بن عباس، الذي أكد ضرورة ممارسة الرياضة والاستحمام والنوم والشراب وغير ذلك، وأشار ابن سينا في كتابه (القانون) إلى ضرورة الوقاية من الشمس ومن تأثيرات البيئة المتغيرة، كما أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أن الأمراض، تكثر في المجتمعات الحضرية أكثر من المجتمعات البدوية، لأن الجماعات الحضرية تمارس عادات غذائية غير متوازنة، مما جعلها عرضة لتفشي الأمراض المختلفة، بعكس الجماعات البدوية التي لا تسرف في الطعام من حيث كميته ونوعيته، هذا إضافة إلى أن هذه الجماعات تكثر من الحركة والتنقل[1].

أما السمة الثانية، فهي التي تتجلى باهتمام الأطباء العرب بالناحية العلاجية. فقد كانوا يبحثون مطولا في أسباب المرض، من ذلك أنهم كثيرا ما كانوا يسألون المرضى عن مأكلهم ومسكنهم وحالتهم الاجتماعية والنفسية، ثم يقومون بعد ذلك بفحص البول وجس نبض المرضى، لما في ذلك من إشارات عندهم تدل على المرض. وشمل العلاج عند الأطباء العرب أمراض العين وأمراض النساء والأطفال والأمراض النفسية والعصبية، والأمراض المعدية (السارية) مثل مرض السل الرئوي والجمرة الخبيثة والجدري والحصبة والجرب. وقد كان العرب أول من أشار إلى انتقال المرض من شخص إلى آخر عن طريق العدوى، ولعل لسان الدين بن الخطيب الأندلسي أول من قال بذلك في رسالة سماها (مقنعة السائل عن المرض الهائل)[2].

أما السمة الثالثة للطب العربي، فهي التي تجلت بالتركيز على الجراحة والتشريح، على الرغم من وجود بعض المعوقات الدينية، التي كانت تعارض ممارسة عملية التشريح خاصة، وكان أشهر من عمل في مجال التشريح هو عبد اللطيف البغدادي وابن النفيس الدمشقي، وعلم التشريح هو الذي ساعد على تقدم الجراحة عند العرب.

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص 292 وما بعدها.

[2] يقصد بالمرض الهائل الطاعون.

وتتجلى السمة الرابعة بالكشوف الهامة في عدد من الميادين الطبية، مثل إقرار قانون تأميم الطب الذي يقضي بعلاج المرضى مجانا في المستشفيات الحكومية، وإقرار الحجر الصحي في أثناء انتشار الطواعين والأمراض والطواعين المعدية، والاهتمام بعلم الأدوية بالاعتماد على الكيمياء مما أدى إلى ظهور علم الصيدلة، واكتشاف الدورة الدموية الصغرى على يد الطبيب ابن النفيس الدمشقي، واعتماد التجربة والملاحظة في العديد من المسائل الطبية، واعتماد سلوك أخلاقي صارم لابد منه لكل طبيب.

الصيدلة

تطور علم الصيدلة عند العرب في العصور الوسطى، تطورا لافتا وخاصة أنه ترافق مع تطور علم الطب، لأن العناية بالطب ارتبطت بالعناية بالصيدلة والكيمياء، لذلك فإن معظم الأطباء في العصور الوسطى، كانوا يجيدون معرفة تركيب الأدوية وتحضيرها، وهذا ما جعلهم أيضا يجيدون معرفة الخواص الدوائية لأنواع جمة من الأعشاب والنباتات، هذا إضافة إلى معرفة مواطن هذه النباتات، مع ذلك فإن بعض الأطباء غلبت عليهم اهتماماتهم الصيدلانية، واشتهروا بذلك على أنهم صيادلة في المقام الأول.

من الصيادلة العرب الذين اشتهروا في العصور الوسطى، يمكن أن نتوقف عند الصيدلاني جابر بن حيان الكوفي المتوفى سنة 195هـ/810م، وهو أحد أبرز تلامذة الإمام جعفر بن محمد الصادق وخاصة في مجال علم الكيمياء، وقد عاصر من الخلفاء العباسيين في حياته العملية المنتجة الخليفة هارون الرشيد، الذي شجعه على تطوير علمه الهام، فألف عددا من الكتب الهامة، التي كان من أهمها كتاب (الخاص) و(الوصية) و(البيان والنور) و(التراكيب) و(الأسرار) وغيرها شيء كثير، اتهمه بعضهم بأنه لم يكن هو الذي ألف هذه الكتب، بل إن تلامذته هم الذين ألفوها ووضعوا اسم أستاذهم عليها إكبارا وإجلالا، لكن أشهر مؤلفاته كان كتاب (السموم) الذي قسمه إلى ستة فصول، درس في الفصل الأول أوضاع القوى وحالها مع الأدوية المسهلة والسموم القاتلة، ودرس في

الفصل الثاني أسماء السموم وكيفية استعمالها، ودرس في الفصل الثالث السموم بوجهٍ عام، ودرس في الفصل الرابع علامات السموم المسقاة وأهم أعراضها، ودرس في الفصل الخامس السموم المركبة، ودرس في الفصل السادس ضرورة الحذر والانتباه حتى لا تؤخذ السموم[1].

جاء بعد ابن حيان على صعيد العلم والشهرة، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، الذي يمكن أن نضعه في الدرجات الأولى في سلسلة الصيادلة العرب في العصور الوسطى، لأنه سلك في بحوثه مسلكا تجريبيا قائما على العلم والمعرفة، فقد ذكر في كتابه (سر الأسرار) تجاربه وبحوثه، فوصف المواد التي كان يشتغل بها، وكذلك الأدوات والآلات التي كان يستعين بها في تحضير المركبات الدوائية، ثم يختم بشرح الطريقة التي يتبعها في عملية التحضير[2]، وهو منتج علمي بحت لابد منه في مجال العلوم التطبيقية التي منها الصيدلة موضوع هذا البحث.

وقد حظي علم الصيدلة بقسط وافر من اهتمام ابن سينا، فقد خصص حيزا كبيرا من كتابه (القانون) للبحث في علم الأدوية المفردة، واستطاع أن يتعرف الخواص الدوائية لعدد جم من النباتات، فذكر أجناسها ومواطن وجودها وطبيعة التربة التي تجود فيها، وفرق بين النبات البري وبين النبات المزروع في بساتين معينة، فأشار إلى أن الفرق بينهما يكون في اختلاف رائحة وطعم كل منهما، وبذلك كان قد سبق العالم كارل متنر الذي نوه بأهمية التشخيص بالعصارة في سنة 1934. وفي كتابه (الشفاء) قام بتخصيص جزء كبير لدراسة النبات، فتحدث عن قضايا التطعيم والتكاثر، كما تحدث عن الثمار والأشواك وعن النبات السيفي أو الساحلي والرملي والجبلي إلى غير ذلك من أمور تتعلق بطبيعة النبات[3].

---

[1] نوه إلى أن السموم هي من مصادر حيوانية ونباتية وحجرية، فالحيوانية تؤخذ من الأفعى ومرارة النمر ولسان السلحفاة والعقارب والكلب الكلب، والنباتية وتؤخذ من الأفيون والبنج الأسود والشيح والكمأة وعنب الثعلب، والحجرية وتؤخذ من الزنجار والزنبق والزرنيخ والزاج والشبة وبرادة الذهب والحديد.

[2] أنور الرفاعي، مرجع سابق، ص 617.

[3] أنور الرفاعي، مرجع سابق، ص 599.

لكن أشهر صيادلة العرب بإطلاق هو عبد الله بن محمد المعروف بابن البيطار الأندلسي المتوفى بدمشق سنة 646هـ/1248م، سافر من الأندلس إلى اليونان وما جاورها، ثم إلى المغرب الكبير، وكان في كل هذه البلاد يتعرف ما يستطيعه من أصناف النبات، التي تدخل في صناعة الأدوية، وفي نهاية المطاف استقر بمدينة القاهرة، التي أصبح فيها رئيسا للصيادلة والعشابين في عصر الكامل الأيوبي، ومع ذلك استمر في عملياته البحثية والاستقصائية[1]، وألف كتابه الهام في الصيدلة (الجامع في الأدوية المفردة)، وتأتي أهمية هذا الكتاب من أنه عد من أكمل وأشمل ما ألفه العرب في الصيدلة، فقد احتوى على أكثر من ثلاثمئة مادة دوائية جديدة، انفرد بابتكارها واكتشافها فسجلت باسمه، وبذلك يكون من العلماء المبدعين في هذا المجال. وله كتاب آخر هو (المغني في الأدوية المفردة) رتبه حسب مداواة الأعضاء، وتحدث فيه عن ناحية واحدة، هي أهمية الأعشاب من الناحية العلاجية[2].

كما اشتهر أيضا في هذا المجال الصيدلي داوود الأنطاكي صاحب كتاب (تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب)، وصف فيه النباتات ذات الخواص الدوائية وصفا دقيقا، ونوه بأهم مواضع وجودها.

وبوجهٍ عام يمكن أن نذكر، أن الطب العربي في العصور الوسطى، شهد تطورا لافتا حتى غدا في قمة ما شهده عالم العصور الوسطى في هذا المجال الحيوي، مما حدا بالأوربيين أن يعتمدوا نتائجه المتقدمة في بلادهم في ميدان التدريس والعلاج، وقد شكل أساس انطلاقتهم الكبيرة في مجال الطب والصيدلة علما وعملا.

---

[1] الدليل على ذلك أنه توفي على حين غرة بدمشق متأثرا بعقار سام كان يجري عليه تجاربه قبل أن يعمم استخدامه.

[2] – ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ج2، ص 133. الكتبي، فوات الوفيات، ج 1، ص 434 وما بعدها.

–المقري، نفح الطيب، ج 4، ص 348. وانظر كتابنا الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص 138 وما بعدها.

فهرس المصادر والمراجع

- نور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، طبعة دار الفكر، 1973.
- بحشل، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، 1967.
- البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية، طبعة القاهرة.
- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، طبعة القاهرة، 1945.
- برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، الترجمة العربية، طبعة دمشق، دار حسان، 1982.
- برنارد لويس، النقابات الإسلامية، الترجمة العربية.
- بوجس أولسومر، أسلافنا العرب، ترجمة محمد محفل، طبعة وزارة الثقافة، دمشق، 1995.
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شلتوت وجمال محرز ومحمد شلتوت، طبعة القاهرة، 1972.
- ابن جبير، الرحلة، طبعة بيروت، 1959.
- ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، طبعة أولى، القاهرة، 1980.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب.
- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، طبعة مصر، 1966.
- جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، طبعة الجامعة السورية، 1958.
- جورج عطية، من حضارتنا، طبعة بيروت، دار النشر للجامعيين، 1956.

- السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، طبعة القاهرة، بدون تا.
- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، طبعة دمشق، 1937.
- عمر الإسكندري وسليم حسن، تاريخ أوروبا الحديثة وآثار حضارتها، القاهرة، مطبعة المعارف، 1917.
- عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، طبعة بيروت، دار العلم للملايين، 1984.
- العرب والإسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط، طبعة ثانية، بيروت، 1981.
- الفارابي، الثمرة المرضية في بعض الرسائل الفارابية، طبعة ليون، 1890، فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها.
- القفطي، تاريخ الحكماء، طبعة ليبزيغ، 1930.
- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة مصر، وزارة الثقافة، 1963.
- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق شعيب أرناؤوط، 1955.
- كاظم الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة، طبعة بغداد، 1967.
- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط 3، بيروت، دار الفكر، 1975.
- تاريخ الدولة العربية الإسلامية، عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ط 3، دمشق، 1991.
- ابن النديم، الفهرست.
- نشأة حمارنة، تاريخ الطب، طبعة جامعة دمشق، 1979.

المراجع الأجنبية

- H. Haskins, Studies in the History Medieval Science.
- Hiti. History of the Arabs, 5th ed., London, 1951.
- Walt. Taylor, Arabic Words in English.
- The New Encyclopedia, 15th ed., Vo. 14, the University of Chicago, 1973.